

{ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ } (1)

النصر: العَوْن؛ مأخوذ من قولهم: قد نَصَرَ الغيثُ الأرضَ: إذا أعان على نباتها، من قَحَطِهَا. قال الشاعر:

إذا انسلخ الشهر الحرام فودّعي بلادَ تميمٍ و أنصري أرضَ عامرٍ

و يروى:

إذا دخلَ الشهرُ الحرامُ فجاوزي بلادَ تميمٍ و انصري أرضَ عامرٍ

يقال: نصره على عدوّه ينصره نصرًا؛ أي أعانه. و الاسمُ النَّصْرَةُ. و استنصره على عدوّه: أي سأله أن ينصره عليه. و تناصروا: نصر بعضهم بعضًا. ثم قيل: المراد بهذا النصر نصر الرسول على قريش؛ الطبري. و قيل: نصره على من قاتله من الكفار؛ فإن عاقبة النصر كانت له. و أما الفتح فهو فتح مكة؛ عن الحسن و مجاهد و غيرهما. و قال ابن عباس و سعيد بن جبير: هو فتح المدائن و القصور. و قيل: فتح سائر البلاد. و قيل: ما فتحه عليه من العلوم. و «إذا» بمعنى قد؛ أي قد جاء نصر الله؛ لأن نزولها بعد الفتح. و يمكن أن يكون معناه؛ إذا يجيئك.

{ وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا } (2)

قوله تعالى: { وَ رَأَيْتَ النَّاسَ } أي العرب و غيرهم. { يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا } أي جماعات: فوجًا بعد فوج. و ذلك لما فتحت مكة قالت العرب: أمّا إذا ظفر محمد بأهل الحرم، و قد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان. فكانوا

يُسَلِّمُونَ أَفْوَاجًا: أُمَّةٌ أُمَّةً. قال الضحّاك: و الأُمّة: أربعون رجلًا. و قال عكرمة و مقاتل: أراد بالناس أهل اليمن. و ذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين. بعضهم يؤذنون، و بعضهم يقرؤون القرآن و بعضهم يُهَلِّلُونَ؛ فسُرَّ النبيّ صلى الله عليه و سلم بذلك، و بكى عمر و ابن عباس. و روى عكرمة عن ابن عباس: أن النبيّ صلى الله عليه و سلم قرأ: { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ } و جاء أهل اليمن رقيقةً أَفْنِدْتُهُمْ، لَيِّنَةً طِبَاعِهِمْ، سَخِيَةً قُلُوبِهِمْ، عَظِيمَةً خَشِيَّتُهُمْ، فدخلوا في دين الله أفواجًا. و في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: **"أَتَاكُمْ أهل اليمن، هم أضعف قلوبًا، و أرق أفئدة، الفقه يمان، و الحكمة يمانية"** و روي أنه صلى الله عليه و سلم قال: **"إني لأجد نفس ربكم من قبل اليمن"** و فيه تأويلان: أحدهما: أنه الفرج؛ لتتابع إسلامهم أفواجًا. و الثاني: معناه أن الله تعالى نَقَسَ الكرب عن نبيه صلى الله عليه و سلم بأهل اليمن، و هم الأنصار. و روى جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: **"إن الناس دخلوا في دين الله أفواجًا، و سيخرجون منه أفواجًا"** ذكره الملوودي، و لفظ الثعلبيّ: و قال أبو عمار حدّثني جار لجابر، قال: سألت جابر عن حال الناس، فأخبرته عن حال اختلافهم و فرقتهم؛ فجعل يبكي و يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: **"إن الناس دخلوا في دين الله أفواجًا، و سيخرجون من دين الله أفواجًا"**

{ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا } (3)

قوله تعالى: { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ } أي إذا صليت فأكثر من ذلك. و قيل: معنى سبح: صلّ؛ عن ابن عباس. «بِحَمْدِ رَبِّكَ» أي حامدًا له على ما آتاك من الظفر و الفتح. «وَ اسْتَغْفِرْهُ» أي سل الله الغفران. و قيل: «فسبح» المراد به: التنزيه؛ أي

نزّهه عما لا يجوز عليه مع شكرك له. «و استَغْفِرْهُ» أي سَلِ الله الغفران مع مداومة الذكر. و الأول أظهر. روى الأئمة (و اللفظ للبخاري) عن عائشة رضي الله عنها قالت: " ما صلى رسول الله صلى الله عليه و سلم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ} إلا يقول: «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَ بِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»** و عنها قالت: " كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يُكثِر أن يقول في ركوعه و سجوده: **«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَ بِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»** يتأول القرآن. و في غير الصحيح: و قالت أم سلمة: كان النبي صلى الله عليه و سلم آخر أمره لا يقوم و لا يقعد و لا يجيء و لا يذهب إلا قال: **"سُبْحَانَ اللَّهِ وَ بِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَ أَتُوبُ إِلَيْهِ . قال . فَإِنِّي أُمِرْتُ بِهَا . ثُمَّ قَرَأُ {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ} إلى آخرها . و قال أبو هريرة: اجتهد النبي صلى الله عليه و سلم بعد نزولها، حتى تَوَرَّمت قدماه، و نَحَلَ جسمه، و قل تبسمه، و كثر بكأؤه . و قال عكرمة: لم يكن النبي صلى الله عليه و سلم قَطُّ أشد اجتهادًا في أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها . و قال مقاتل: " لما نزلت قرأها النبي صلى الله عليه و سلم على أصحابه، و منهم أبو بكر و عمر و سعد بن أبي وقاص، ففرحوا و استبشروا، و بكى العباس؛ فقال له النبي صلى الله عليه و سلم: **«ما يُبْكِيكَ يَا عَمُّ؟»** قال: **نُعِيْتُ إِلَيْكَ نَفْسُكَ . قال: «إِنَّهُ لَكَمَا تَقُولُ»**؛ فعاش بعدها ستين يومًا، ما رُئِيَ فيها ضاحكًا مستبشِرًا. و قيل: نزلت في منى بعد أيام التشريق، في حجة الوداع، فبكى عمر و العباس، فقيل لهما: إن هذا يوم فُوح، فقالا: بل فيه نَعْيُ النبي صلى الله عليه و سلم. فقال النبي صلى الله عليه و سلم: **"صَدَقْتُمَا، نُعِيْتُ إِلَيَّ نَفْسِي"** و في البخاري و غيره عن ابن عباس قال: كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر، و يأذن لي معهم. قال: فوجد بعضهم من ذلك، فقالوا: يأذن لهذا الفتى معنا و من أبنائنا من هو مثله! فقال لهم عمر: إنه من قد**

علمتم. قال: فأذن لهم ذات يوم، و أذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورة { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ } فقالوا: أمر الله جل و عز نبيه صلى الله عليه و سلم إذا فتح عليه أن يستغفره، و أن يتوب إليه.

فقال: ما تقول يا ابن عباس؟ قلت: ليس كذلك، و لكن أخبر الله نبيه صلى الله عليه و سلم حضورَ أجله، فقال: { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ }، فذلك علامة موتك. { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا }. فقال عمر رضي الله عنه: تلوموني عليه؟ و في البخاريّ فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول. و رواه الترمذيّ، قال: كان عمر يسألني مع أصحاب النبيّ صلى الله عليه و سلم، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتسأله ولنا بنون مثله؟ فقال له عمر: إنه من حيث نعلم. فسأله عن هذه الآية: { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ }. فقلت: إنما هو أجل رسول الله صلى الله عليه و سلم، أعلمه إياه؛ و قرأ السورة إلى آخرها. فقال له عمر: و الله ما أعلم منها إلا ما تعلم. قال: هذا حديث حسن صحيح. فإن قيل: فماذا يغفر للنبيّ صلى الله عليه و سلم حتى يؤمر بالاستغفار؟ قيل له: كان النبيّ صلى الله عليه و سلم يقول في دعائه: **" رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَ جَهْلِي، وَ إِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَ مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَ عَمْدِي، وَ جَهْلِي وَ هَزْلِي، وَ كُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَ مَا أَخَّرْتُ، وَ مَا أَعْلَنْتُ وَ مَا أَسْرَرْتُ، أَنْتَ الْمَقْدِمُ وَ أَنْتَ الْمُؤَخَّرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "** فكان صلى الله عليه و سلم يستقصر نفسه لعظم ما أنعم الله به عليه، و يرى قصوره عن القيام بحق ذلك دُنُوبًا. و يحتمل أن يكون بمعنى: كُنْ متعلِّقًا به، سائلًا راعبًا، متضرعًا على رؤية التقصير في أداء الحقوق؛ لئلا ينقطع إلى رؤية الأعمال. و قيل: الاستغفار تَعَبُّدٌ يجب إتيانه، لا للمغفرة، بل تعبدًا. و قيل: ذلك تنبيه لأمته،

لكيلا يأمنوا و يتركوا الاستغفار. و قيل: «و استغفروه» أي استغفر لأمتك. {إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}: أي على المسبحين و المستغفرين، يتوب عليهم و يرحمهم، و يقبل توبتهم. و إذا كان عليه السلام و هو معصوم يؤمر بالاستغفار، فما الظن بغيره؟ روى مسلم عن عائشة قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يُكثر من قول: «سُبْحَانَ اللَّهِ و بِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ و أَتُوبُ إِلَيْهِ». قالت: فقلت يا رسول الله، أراك تكثر من قول «سُبْحَانَ اللَّهِ و بِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ و أَتُوبُ إِلَيْهِ»؟ فقال: «خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عِلَامَةً فِي أُمَّتِي، فَإِذَا رَأَيْتَهَا أَكْثَرَتْ مِنْ قَوْلِ سُبْحَانَ اللَّهِ و بِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ و أَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتَهَا: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ} . فتح مكة . {وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}» و قال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمِنَى في حِجَّةِ الْوِطَاعِ، ثم نزلت {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}

[المائدة: 3] فعاش بعدها النبي صلى الله عليه و سلم ثمانين يومًا. ثم نزلت آية الكَلَالَةِ، فعاش بعدها خمسين يومًا. ثم نزل:

{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ}

[التوبة: 128] فعاش بعدها خمسة و ثلاثين يومًا. ثم نزل

{وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ}

[البقرة: 281] فعاش بعدها أحدًا و عشرين يومًا. و قال مقاتل سبعة أيام. و قيل غير هذا مما تقدّم في «البقرة» بيانه، و الحمد لله.